الفصل الثلاثون

أوباس في قصره

أما أوباس، فإنه لما خرج الملك من بين يديه، نهض وسار على عجل إلى منزله لموافاة فلورندا والخادمين، وتدبير وسيلة لإخراجهما من طليطلة، فلما وصل إلى منزله، سأل الخدم: «هل جاء أحد للسؤال عني» فقالوا له: «كلا..» فانشغل خاطره لاعتقاده أنهم كان يجب أن يسبقوه إلى هناك لو لم يكن أصابهم سوء أو عاقهم عائق.. فأعمل فكره وعلل نفسه بقرب وصولهم حتى مل الانتظار فعول على الخروج بنفسه للبحث عنهم في الطريق الذي كان يتوقع أن يجيئوا منه، ولكنه ما لبث أن سمع ضوضاء ووقع حوافر خيول أمام القصر، فظنهم جاءوا على أفراس، فنهض وأطل من شرفة القصر والظلام لا يزال حالكًا فرأى جماعة من الفرسان دنوا من القصر وأحاطوا به عن بعد، ولم يخاطبوا أحدًا من أهله. ولم يستطع لشدة الظلام أن يتبين الوجوه، ولكنه أدرك بفراسته أنهم من رجال رودريك وقد جاءوا لأمر يوجب قلقًا. على أنه لم يخف على نفسه لرباطة جأشه ولاعتقاده ببراءة ساحته واعتماده على عزيمته وقوة حجته، ولكنه خاف على فلورندا ورفاقها إذا جاءوا في تلك الساعة فإنهم سوف يقعون في الشراك لا محالة..

وأعمل فكره هنيهة فرأى أن المبادرة إلى العمل أجدر به فتحول إلى غرفته، فتزمل بالقباء وخرج إلى الباب ونادى أقرب فارس إليه فجاءه وترجل وحياه باحترام. فقال أوباس: «ما الذي تفعلونه هنا؟».

قال: «إننا مكلفون بالوقوف هنا إلى الصباح..».

فقال أوباس: «ومن أمركم بذلك؟..».

فسكت الرجل وحول وجهه إلى جهة أخرى ونادى ضابط تلك الكوكبة، فجاء وترجل وحيا أوباس وهم بتقبيل يده، فاجتذب أوباس يده بعنف وقال: «من أمركم بالوقوف هنا وما الغرض منه؟».

فقال الضابط: «أمرنا به من ينوب عن الملك.. لماذا أقلقت راحتك وخرجت في هذا الليل من فراشك؟.. نم مستريحًا»..

فقال أوباس بنغمته الهادئة: «أفصح يا جندي عن الغرض من وقوفكم هنا أو ارجعوا من حيث أتيتم».

فقال وهو يخفض صوته تهيبًا من أوباس: «إننا مكلفون بالقبض على قداستكم حين تهمون بالخروج من هذا المنزل..».

فاستشاط أوباس غضبًا ولكنه ظل هادئًا وقال: «مكلفون بالقبض علي؟.. ومن أمركم بذلك؟..».

فقال الضابط: «يعذرني مولاي فإني مأمور ولا يسعني إلا الطاعة.. إننا مكلفون من قائدنا الأكبر بناء على أمر جلالة الملك، فهل نستطيع مخالفة الأمر؟..».

فقال أوباس: «كلا، بل أنا أحرضكم على الطاعة دائمًا» قال ذلك وأعمل فكره في الأمر، وأراد أن يسرع خوفًا من وصول فلورندا في تلك الساعة فقال: «إني خارج الساعة معكم، ولا حاجة بكم إلى الانتظار حتى الصباح».

قال الرجل: «ليس في الأمر يا مولاي ما يدعو إلى هذا القلق. فلو مكثت في منزلك شهرًا ما مسسناك».

قال: «بل أخرج الساعة.. هلم بنا..».

فأشار الضابط إلى فرسانه إشارة يفهمونها، فتجمهروا وأتوا بجواد ركبه أوباس، وساروا به وهو في وسطهم والجميع سكوت لا يجرؤون على الكلام في حضرته.

أما هو فكان في أثناء الطريق يفكر في الأمر الذي ساقوه لأجله وقد عزم على الثبات والتعقل. غير أن ذهنه ظل منشغلًا بفلورندا وخشي أن يلتقوا بها في ذلك الطريق، لكنهم بلغوا القصر ولم يروا أحدًا..

فلما وصل أوباس إلى قصر الملك هم بالترجل، فأشار إليه الضابط بأنهم مكلفون بمرافقته إلى مخفر بالقرب من القصر إلى الصباح، ثم قال الضابط: «ولهذا السبب قلت لقداستكم أن تبقوا في منزلكم إلى الصباح، وأردنا بذلك الحرص على راحتكم»..

ولكن أوباس رأى أنه أحسن صنعًا بإخلاء الطريق لفلورندا ولو سبب له ذلك بعض الضيق ريثما يلقى الملك ويرى ما يريد. فدخل غرفة في بيت بجانب القصر وظل الحرس بالباب.

قضى أوباس بقية ذلك الليل يذرع تلك الغرفة ذهابًا وإيابًا، وهو يفكر فيما عسى أن يكون غرض الملك من تلك الدعوة على هذه الصورة. وخطرت له خواطر كثيرة وتهم شتى ربما يتهمه بها رودريك، ولكنه سر بما توهمه من نجاة فلورندا، وأما هو فلم يكن ليخاف موقفًا أو يهاب خطرًا في سبيل الحق والحرية.. والرجل الحر لا يفزعه موقف ولا يتهيب من سؤال، وهو محترم حتى من أعدائه، إلا أنه قد يكون في خطر من دسائس الدساسين أو استبداد الظالمين.